المحاضرة رقم 10: التحوّل السوسيوثقافي والشخصية الجزائرية (01)

مقدّمة

شهد المجتمع الجزائري خلال العقود الأخيرة سلسلة من التحوّلات العميقة التي مستّ البنية الاجتماعية والثقافية والقيمية، نتيجة تفاعل عدد من العوامل التاريخية والسياسية والاقتصادية العالمية والمحلية. هذه التحوّلات لم تغيّر فقط شكل المجتمع، بل أعادت تشكيل الشخصية الجزائرية ذاتها، من خلال إعادة تعريف الانتماءات، وإعادة إنتاج القيم، وتغيّر أنماط العيش والتواصل، وتبدّل انتظار الفرد من الدولة والمجتمع.

تهدف هذه المحاضرة إلى تحليل طبيعة التحوّل السوسيوثقافي في الجزائر، وكيف أثّر في بناء الشخصية الجزائرية في الماضي والحاضر، مع محاولة استشراف أبرز الاتجاهات المستقبلية.

أولا: مفهومي التحوّل السوسيوثقافي والشخصية الجزائرية

1. مفهوم التحول السوسيوثقافي

يشير التحوّل السوسيوثقافي إلى:

- ❖ تغيّر في البنى الاجتماعية (العائلة، العلاقات، المكانة، الأدوار)
- ❖ تغيّر في البنى الثقافية (القيم، المعتقدات، الرموز، أنماط العيش)
- ❖ تغيّر في تمثلات الفرد والجماعة لما هو مشروع، ممكن، مرغوب، أو ممنوع.

حسب علماء الاجتماع (بارسونز، غيرتز، غيدنز)، فالتحوّل يحدث عندما تتعرّض الأنظمة الثقافية والاجتماعية لضغوط خارجية أو داخلية تؤدي إلى إعادة تركيبها.

2. مفهوم الشخصية الجزائرية

تُفهم الشخصية الجزائرية بوصفها "**منظومة من السمات السلوكية والقيمية والتمثلات**" المحددة تاريخيًا وثقافيًا، وتشمل:

- ❖ النزعة الجماعية والتضامن.
- ❖ الحس الوطني المرتبط بالتجربة التاريخية.
- ❖ تقدير الشجاعة والرجولة.
- ❖ التديّن الشعبي.
- ❖ احترام الكبار والعائلة.

- الحسّ السياسي والميول للمقاومة.
- الميل إلى السخرية والفكاهة كآلية للتجاوز النفسي.

ثانيا: الجذور التاريخية لتشكّل الشخصية الجزائرية

1. حقبة ما قبل الاستعمار

- تنوّع ثقافي بين العرب والأمازيغ والطوارق.
- قيم الشرف والقبيلة والتضامن.
- اقتصاد فلاحي ورعوي يعزّز الروابط التقليدية.

2. الحقبة الاستعمارية(1830–1962)

- فرض الاستعمار الفرنسي أنماطًا جديدة من التنظيم الاجتماعي.
- تدمير البنى التقليدية وإعادة تشكيلها.
- ظهور الشخصية المقاومة المتشبثة بالكرامة والهوية.
- تبلور الحسّ الوطني كمكوّن أساسي للشخصية.

3. مرحلة ما بعد الاستقلال

- بناء الدولة الوطنية والتحديث المؤسسي.
- انتشار التعليم، التحضّر، والهجرة الداخلية.
- صعود القيم الجماعية والشرعية الثورية.
- لاحقًا (منذ الثمانينيات): أزمة اقتصادية ← انهيار نماذج قديمة ← صعود الفردانية.

ثالثا: عوامل التحوّل السوسيوثقافي في الجزائر المعاصرة

يشهد المجتمع الجزائري سلسلة من التحوّلات البنيوية التي لم تعد تُقرأ في بعدها الظاهر فقط، بل تمتد إلى أعماق الحياة اليومية والقيمية والرمزية. تعكس هذه التحوّلات نهاية مرحلة اجتماعية / ثقافية قائمة على الأنموذج التقليدي، وبداية مرحلة جديدة تُعيد فيها الفئات الاجتماعية إنتاج معانيها وعلاقاتها.

وفيما يأتي أهم العوامل التي تقف خلف هذه التحوّلات:

1. التحوّل الاقتصادي

يشكّل الاقتصاد أحد أكثر العوامل تأثيرًا في البنية الاجتماعية والقيمية في الجزائر. ويمكن تفصيل التحوّل الاقتصادي في محاور عدّة:

أ- من اقتصاد الدولة إلى اقتصاد السوق النسبي

- ❖ بعد الاستقلال، تبنّت الجزائر نموذج الاقتصاد الموجه والاشتراكية، ما خلق قيمًا جماعية مرتبطة بالمساواة والمِلْكيّة العامة.
- ❖ منذ الثمانينيات والتسعينيات، ومع برامج التعديل الهيكلي، تحوّل الاقتصاد تدريجيًا نحو السوق.
- ❖ هذا الانتقال أدى إلى تغيّر نظرة الفرد إلى العمل والملكية والنجاح.

ب- صعود اقتصاد الخدمات والاستهلاك

- ❖ تراجع دور الصناعة، مقابل توسع التجارة والخدمات.
- ❖ تشكلت طبقات جديدة ترتكز على الريع والخدمات والاقتصاد الموازي.
- ❖ تغيّرت القيمة الاجتماعية للعمل المنتج، مقابل بروز "قيم الربح السريع."

ج- الاقتصاد الموازي واللامرئي

- ❖ يشكل بين 30% إلى 45% من النشاط الاقتصادي.
- ❖ أنتج ثقافة خاصة: السرعة، اللايقين، المخاطرة، غياب الاستقرار.
- ❖ أثّر على الشخصية الجزائرية عبر تكريس قيم البراغماتية والبحث عن الفرص.

د- البطالة والهشاشة المهنية

- ❖ نسبة معتبرة من البطالة لدى الشباب والنساء.
- ❖ أدى ذلك إلى:
  - تأخّر سن الزواج.
  - بروز الإحباط الوجودي.
  - تعزيز "ثقافة الهجرة" كحلم جماعي.

2. التحوّل الديمغرافي

أ- مجتمع شاب

- ❖ أكثر من 70% من السكان أقل من 35 سنة.
- ❖ هذا الثقل الديمغرافي جعل الشباب قوة دافعة للتحول القيمي والاتصالي والثقافي.

ب- انتقال بنيوي في العائلة

- ❖ انكماش العائلة الممتدة.
- ❖ صعود العائلة النواتية (الأب–الأم–الأطفال).
- ❖ تحوّل أدوار السلطة داخل الأسرة:
  - تقلّص سلطة الأب.
  - تعزيز "التفاوض" بدل "الطاعة."

ج- التحضّر المتسارع

- ❖ شهدت الجزائر واحدة من أسرع معدلات التحضر في المغرب العربي.
- ❖ أدى ذلك إلى:
  - انهيار شبكات التضامن القبلي.
  - بروز الفرد الحضري المرتبط بالعمل والمدرسة والشارع بدل القبيلة.

3. التحوّل التكنولوجي والاتصالي

من أبرز العوامل التي سرّعت التحوّل الثقافي المعاصر في الجزائر.

أ- الثورة الرقمية

- ❖ الإنترنت والهواتف الذكية خلقت فضاء موازيًا: "المجتمع الرقمي."
- ❖ أصبح الشباب يكتسبون قيمًا من خارج الأسرة والمدرسة والمسجد.

ب- تراجع الوسائط التقليدية

- ❖ التلفزيون الرسمي فقد احتكاره للمعرفة.
- ❖ انفتاح على ثقافات متعددة: الأنغلو–سكسونية، اللاتينية، الكورية...

ج- تشكّل هوية افتراضية

الهوية لم تعد تُحدد فقط بالانتماء العائلي أو المحلي، بل أيضًا:

- ❖ حسابات التواصل.
- ❖ المحتوى المتابع.
- ❖ الانتماء إلى مجتمعات افتراضية(Gaming ، fandom...).

د- اللغات والهجنة اللغوية

- ❖ انتشار خليط لغوي جديد: العربية + الدارجة + الفرنسية + الإنجليزية + الأمازيغية.
- ❖ ظهور "لغة شبابية" مشفّرة ومرنة تعكس تغير القيم وأنماط التفكير.

4. التحوّل القيمي والمعياري

أ- انهيار منظومة القيم التقليدية

- ❖ تراجع سلطة الجماعة، القبيلة، والقرية.
- ❖ صعود الفرد كفاعل مستقل نسبيًا.

ب- صراع القيم

صراع بين:

- ❖ قيم الأصالة والمرجعية الدينية.
- ❖ قيم الحداثة وحقوق الإنسان.
- ❖ قيم الاستهلاك والرغبة الفردية.

ج- إعادة تعريف مفاهيم أساسية

- ❖ الشرف :لم يعد مرتبطًا فقط بالأنثى والعائلة، بل بالأخلاق الفردية.
- ❖ الرجولة :تحوّلت من القوة البدنية والدفاع، إلى القدرة على العمل والنجاح.
- ❖ السلطة :من سلطة الكبار إلى سلطة المال والمعرفة الرقمية.

د- بروز قيم جديدة

- ❖ الحرية الفردية.

- النجاح الشخصي.
- الاستقلال المادي.
- الاهتمام بالمظهر.

5. التحضّر وتمدد المدن

أ- نمو المدن الكبرى

- توسّع المدن مثل: الجزائر العاصمة، وهران، قسنطينة، عنابة، تيزي وزو.
- تحوّلت المدن إلى مراكز التأثير الثقافي.

ب- تراجع العلاقات التقليدية

- ضعف التضامن الجوارى (الجار الذي كان بمثابة عائلة أخرى).
- صعود "الحي المغلق" أو "الفرد داخل شقة."

ج- المولات والمقاهي كمجالات اجتماعية جديدة

المقاهي لم تعد فضاءً ذكوريًا فقط، بل أصبحت:

- فضاءً للتفاوض الاجتماعي.
- مكانًا لصناعة العلاقات.
- مركزًا للهوية الشبابية.

د- النقل والهجرة الداخلية

انتقال آلاف العائلات من الريف إلى المدن، أدى ذلك إلى:

- إعادة تشكيل الهوية المحلية.
- ظهور ثقافات حضرية–ريفية هجينة.

6. التحوّل السياسي

أ- الديمقراطية المتدرجة

- صعود الوعي السياسي.
- تراجع الخوف من التعبير.

- النقاش المفتوح حول قضايا الهوية والحقوق.

ب- الحركات الاجتماعية

الحراك الشعبي (2019) شكّل منعطفًا من خلال:

- سلمية غير مسبوقة.
- وعي جماعي جديد.
- نقد سياسي شديد.

ج- إعادة تشكيل علاقة الفرد بالدولة

- المواطن لم يعد متلقيًا سلبيًا.
- بروز "ثقافة المطالبة" بدل "ثقافة الانتظار."

7. العولمة الثقافية

أ- ثقافة الاستهلاك

- انتشار الماركات العالمية.
- تزايد أهمية الصورة والمظهر.

ب- تأثير الإعلام المرئي

- المسلسلات التركية، الكورية، الغربية.
- إعادة تشكيل تمثلات الحب، العائلة، الجمال، النجاح.

ج- الهجرة كأفق

- أصبحت الهجرة جزءًا من الثقافة الشبابية.
- "الحَرْقة" كمفهوم اجتماعي–نفسي.

8. العامل التربوي والتعليمي

أ- أزمة المدرسة

- تراجع دور المدرسة في تكوين الشخصية.
- منافسة قوية من وسائل التواصل.

ب- ارتفاع التعليم العالي

ارتفاع عدد الطلبة خلق طبقة متعلمة بدون اندماج اقتصادي كامل.

- ❖ البطالة.
- ❖ الإحباط.
- ❖ مراجعة مفهوم النجاح.

9. العامل الديني

أ- تعدد أنماط التدين

- ❖ تدين تقليدي.
- ❖ تدين شبابي فرداني.
- ❖ تدين إصلاحي.
- ❖ تديّن رقمي (يوتيوبرز، مؤثرون).

ب- تراجع المرجعيات التقليدية

- ❖ الزوايا.
- ❖ الشيوخ المحليون.
- ❖ القبيلة.

ج- بروز التدين المرن

- ❖ التركيز على الروحانية بدل الطقوس.
- ❖ انتقاء بعض الأحكام وترك أخرى.

خلاصة

إنّ عوامل التحول السوسيوثقافي في الجزائر ليست عوامل منفصلة، بل هي شبكة متداخلة تُعيد تشكيل المجتمع وقيمه وعلاقاته وسلوكياته، كما أنها تشكّل الأساس لفهم التحوّلات العميقة في الشخصية الجزائرية، التي تعيش اليوم بين إرث ثقافي قوي وعالم حديث يفرض إعادة تعريف كل شيء تقريبًا: الهوية، القيم، الأدوار، والآفاق.